

طرق علاج التطرف الفكري

إنه لمن المنطقي، في معرض حديثنا عن طرق علاج التطرف الفكري أن نبدأ بتساؤل: هل من الممكن القضاء على التطرف الفكري جملة وتفصيلاً؟

عند الإجابة عن هذا التساؤل، نجد أنفسنا أمام موقفين؛ أحدهما، يرى أنه من الممكن القضاء على التطرف الفكري واقتلعه من جذوره تماماً بين عشية وضحاها، في حين يذهب الموقف الآخر، إلى أنه يستحيل القضاء عليه بشكل نهائي لأنه يعيش في المجتمعات كالكائن الحي؛ يلد، فينمو، ثم يتكاثر، ثم يموت، ثم ينشأ تطرفاً جديداً فينمو، ويتكاثر... الخ. وبهذا فإذا ما اندحر تطرف ظهر آخر في سلسلة لا نهائية من التطرف الفكري المختلف.

ولكن بين هذا الرأي وذاك، يكون لنا رأياً ثالثاً يجمع بين أشتات كلا الموقفين أو الرأيين السابقين؛ فلا نستطيع أن نغض الطرف عن أن الفكرة تحمل لا توسعها في وجودها، ولكن لا مندوحة لنا عن الإقرار بوجودها، ففي التطرف ذاته تختفي الكلية، وكلما زاد أتباعها سعت نحو المزيد من التطرف، ومن هنا فهي فكرة تلفظ نفسها بنفسها، إنها فكرة لا تستطيع التطور والنمو.

إن هذه الفكرة لن تختفي، ولكن تستطيع الأفكار الإنسانية المثالية والمتعالية أن تضعها دوماً في طور التشرق الذي لا ينمو ولا يظهر للحياة، تضعها في طور ما قبل الحياة والذي يسعى نحو الحياة، ومن هنا كان لزماً على الدعوات الإنسانية السوية الحقّة أن تنطلق بلا هوادة كي تنهال تلك الأفكار المتطرفة.

وإذا أردنا دقة أكثر عند معالجة هذا الموضوع، يمكننا القول: إن التطرف الفكري كظاهرة عالمية/ دولية ستظل مستمرة، لم يستطع القضاء عليها التفكير، أو التعقل، أو الحكمة؛ وذلك لأن أسبابها والدوافع التي تدعو إليها تتنوع وتتجدد مع تطور الحياة ذاتها وتجددها المستمر، بالإضافة، إلى أن وجود الشر في العالم لا يمكن القضاء عليه، بل سيظل الصراع بين الخير والشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومع كل هذا يمكن العمل على خفض حدة هذا الصراع.

أما التطرف الفكري على المستوى المحلي أو المجتمعي، فمن الممكن القضاء عليه حيناً واحداً من نفوذه في أحيانٍ أخرى؛ وذلك لأن موقف المتطرف، مهما كان متشدداً، يبقى مع ذلك هشاً

ومؤقتاً في الغالب: فنحن لا نولد متعصبين أو متطرفين، بل نغدو كذلك، ونحن لا نبقى متطرفين طوال حياتنا.

ولعلّ أحسن مثال على ذلك تراجع أعضاء جماعة «بادر ماينهوف» الألمانية، و«الألوية الحمراء» في إيطاليا وتخليها عن أفكارها المتطرفة بشأن المجتمع الرأسمالي وضرورة محاربته وكسر شوكة الامبريالية، بالإضافة إلى ما اصطُلح عليه بـ«المراجعات» في صفوف عدد من قيادات الجماعات الإسلامية والحركات الجهادية في ديار الإسلام^(١).

من هذا السياق السابق، يتضح أن الحديث عن طرق علاج التطرف الفكري قد اتخذ صيغة التعميم، فقد بدا لنا وكأن التطرف الفكري شيئاً واحداً من الممكن وضع في قلب واحد أو في بوتقة واحدة، ومن ثمّ، يتم الحكم عليه بالبقاء أو بالفناء. وهذا خطأ فادح لأن التعميم، بلغة المنطق، من أحد أسباب الوقوع في الخطأ في التفكير، وبالتالي إذا كانت مقدمة تشخيص العلاج خاطئة، ستكون نتيجة طرق العلاج خاطئة بالضرورة. ولكن كيف يكون العلاج من وجهة نظرنا؟

ليس ثمة شك، في أننا حين نكون إزاء تصورنا لوضع طرق علاج للتطرف الفكري نكون أمام واقع لا ينفصم عراه عن إحدى حالتين؛ إحداهما، أننا أمام حالة من التطرف الفكري التي في طريقها للظهور أو للخروج إلى أرض الواقع، ولكنها في مرحلة التهيؤ والاستعداد، وهذه المرحلة نجدها في النشء أو الأطفال.

والحالة الأخرى، فهي تلك الحالة من التطرف الفكري التي تكون موجودة بالفعل حيث خرجت من عالم ما سيكون أو عالم العدم إلى عالم ما هو كائن بالفعل أو عالم الوجود وهذه نجدها في الشباب والكهل.

وعلى هذا، تكون الحالة الأولى في طريقها إلى التطرف، بينما الحالة الأخرى تم تطرفها بالفعل. وبذلك لا يمكن أن تكون طريقة علاج هذه الحالة (الأولى) كذلك (الثانية)، وإنما ستختلف طريقة العلاج كل حسب حالته، لأن الطبيب الذي يعطي علاجاً واحداً لمريضين يعانين من المرض نفسه، قد يقتل أحدهما وذلك لاختلاف طبيعة كلا منهما.

فبالنسبة للحالة الأولى، تكون طرق العلاج أنجع وأيسر بكثير من الحالة الثانية، وذلك لأن التطرف الفكري في الحالة الأولى يكون في مرحلة المهد، أي بداية المرض، ومن ثمّ، يسهل

(١) محمد الحاج سالم: عرض نقدي لكتاب جيرالد برونر: الفكر المتطرف؛ كيف يصبح الناس العاديون متعصبين، مقال في مجلة مؤمنون بلا حدود الإلكترونية، مارس ٢٠١٥، تم الدخول ٢٣/١/٢٠١٦.

- <http://www.mominoun.com/articles/>

القضاء عليه وعلاجه. في حين أن الحالة الأخرى، يصعب الحوار والتفاهم معها إلا بشق الأنفس؛ وذلك لتسرب كثير من المعتقدات والأفكار والمفاهيم الخاطئة التي يجب تصحيحها في ذهن الشخصية المتطرفة.

آليات مواجهة التطرف الفكري أو طرق علاجه:

يمكننا أن نقدم إجمالاً ثم نعقبه بتفصيل لطرق علاج التطرف الفكري على النحو التالي:

أ) على مستوى الفرد^(١):

- تدريب الأفراد الأكثر عرضة للتطرف الفكري At Risk Group على بعض المهارات الأساسية وقوامها:

- ١- تنويع خبرات الفرد في مجالات متعددة؛ لكي يرتقي بطريقة تفكيره.
- ٢- حث الفرد على البحث عن أصل المسائل الفقهية والاجتماعية والسياسية موضع الاهتمام كأسلوب يجب التزامه في دراسة ومناقشة تلك القضايا.
- ٣- ترسيخ مبدأ أن العبرة ليس بمن قال، ولكن ماذا قيل.
- ٤- تشجيع الفرد على تحليل الخبرات المتنوعة التي يتلقاها بالطريقة التي تسر عليه الاستفادة منها.
- ٥- تدريب الفرد على التعبير عن مشاعره وآرائه المختلفة ومقاومة ضغوط الآخرين لإقناعه بأشياء غير منطقية بصورة ملائمة بما يقلل من توتراته.
- ٦- دعوة الفرد لممارسة التفكير متعدد الرؤى في حياته الخاصة، والعامة؛ لكي يقيم الأمور ويحكم عليها بصورة أفضل.
- ٧- تبني الفرد آلية «القدوة المصنع ذاتياً»؛ بمعنى أن يلاحظ نماذج مختلفة، ويأخذ من كل منها ما يراه مفيداً، ويترك ما عدا ذلك.
- ٨- حث الفرد على أن يضع نفسه موضع الآخرين؛ ليصبح أكثر تفهماً لمواقفهم.
- ٩- بناء الشخصية الإيجابية التي تقود لا تنقاد، وتترى لا تندفع، وتتخذ القرار لا تتردد، وتعبر عن آرائها لا أن تكبتها، وتشارك في شئون مجتمعتها لا تنزوي عنها.

(١) طريف شوقي محمد فرج: المرجع السابق، ص ٢٣، ٢٢.

ب) على مستوى الجماعة^(١):

- ١- بيان موقف الجماعات المتطرفة من القضايا القومية المحورية للمجتمع؛ لكي يعي أفرادها طبيعة الإستراتيجية الحاكمة لها.
- ٢- مناقشة القضايا المحورية للجماعات المتطرفة بشكل يعتمد على الأدلة والبراهين الاستدلالية والواقعية.
- ٣- التعامل مع أعضاء الجماعات وفق مبدأ التفريد، فالقيادات الفكرية يتم التعامل معها بطريقة تختلف عن القيادات التنظيمية، والأعضاء النشطين غير الأعضاء الشرفيين.
- ٤- تحليل الأسباب الرئيسة لنشأة الجماعات المتطرفة، والدوافع المحركة لانضواء الأعضاء إليها لوضع خطط فعالة للتعامل معها.

ج) على المستوى المجتمعي^(٢):

- ١- تركيز الخطاب الديني على بيان دور التفكير النقدي في بناء الشخصية الإسلامية كما مارسه الرسول صلى الله عليه وسلم مع الصحابة رضي الله عنهم.
- ٢- إبراز الجانب الآخر من الحجج عند مناقشة قضايا اجتماعية أو دينية حيوية ثمة مواقف متطرفة حولها في وسائل الإعلام.
- ٣- دعم الجامعات ومراكز البحوث لإجراء مسح قومي يهدف إلى إصدار أطلس بالجماعات المتطرفة لتقييمها وتحديد مستوى تطرف كل منها.
- ٤- تنظيم المؤسسات التعليمية أنشطة تهدف إلى توضيح موقف الإسلام من قضايا اجتماعية وإنسانية مهمة لمنع محاولات الجماعات استغلال نقص معلومات الأفراد العاديين حولها.

د) أبرز أساليب العلاج على المستوى العام:

أما أبرز أساليب العلاج على المستوى العام^(٣):

- ١- الإنابة إلى الله تعالى وتحكيم شرعه وإتباع ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، ونشر العلم الصحيح والفهم السليم ومتابعة التوجيه والترشيد، من خلال التركيز على دور علماء

(١) طريف شوقي محمد فرج: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) طريف شوقي محمد فرج: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٣) محمد محمود ولد محمد محفوظ ولد الطالب أحمد: مرجع سابق.

الدين الذين يفهمون الإسلام فهماً شمولياً دقيقاً وعميقاً، وذلك بفتح جميع قنوات الاتصال بالجمهير أمامهم من: تلفاز ومذياع وصحف ومحاضرات ودروس في المساجد وغيرها، وربط شباب الأمة بصفة خاصة بهؤلاء العلماء، من خلال عقد اللقاءات المفتوحة معهم، وتسهيل الوصول إليهم...

وهنا أهيب بعلماء الأمة أن يتحملوا مسؤولياتهم وأن يوسعوا للشباب صدورهم، وأن يتلقفهم بأيدي حانية تذللهم للحق، وتفقه عواطفهم ومشاعرهم وتصرفها إلى ما يرضي الله تعالى، وترشد طاقاتهم وتوجهها إلى ما يعود عليهم وعلى مجتمعاتهم بالخير والنفع، فنمنحي الحواجز وتتجدد ثقة الشباب بعلمائهم ويحسنوا الظن بهم فيتلقوا عنهم العمل النافع والفهم السديد... وهو ما يضيق ويقلل من فرص انتشار الأفكار المتطرفة، ويتيح الفرصة لنمو الفكر الإسلامي الصحيح المعتدل.

٢- اعتماد أسلوب الحوار في العلاج، فالحوار أسلوب قرآني ونبوي ناجح ومثمر، يأسر القلوب ويحركها نحو الفضيلة، ذلك أن جميع الأفعال التي تصدر عن الإنسان - خاطئة كانت أو مصيبة - إنما تصدر في الغالب عن معتقدات وقناعات لديه لا يمكن تعديلها عن طريق الضغط الجسدي أو النفسي مهما مورس منه، وإنما عن طريق الحوار والإقناع.

نعم قد يكف عنها نتيجة الخوف وتحت وطأة التهديد والتعذيب، ولكن ذلك لن يكون إلا إلى حين، وستظل تلك المعتقدات تسيطر عليه حتى إذا ما وجد الفرصة المناسبة خرج ليحقق معتقداته. وليس هذا دعوة للتخلي عن الدور الأمني أو التقليل من شأنه، فهو ضروري ومطلوب للكشف عن الظاهرة في بدايتها ومتابعة أصحابها ومراقبتهم حتى لا يترجموا أفكارهم إلى أفعال تسيء للفرد والمجتمع، ولكنها دعوة إلى التنسيق المحكم بين الأجهزة الأمنية والأطراف الأخرى للوقوف على الأسباب الحقيقية للظاهرة وتشخيصها ومعالجتها باعتماد أسلوب يجمع بين الحل الأمني والحل الفكري من خلال الحوار الهادف والهادئ والتركيز على توعية الشباب بأحكام دينهم، وكشف الشبه عنهم وجداهم بالتي هي أحسن، وإقناعهم بالحجة البالغة بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣- التعامل مع هؤلاء المتطرفين - ولو مبدئياً على الأقل - انطلاقاً من كونهم أصحاب فكر خاطئ ومعتقدات فاسدة، أو من كونهم أصحاب حالات نفسية أو احتياجات خاصة، يحتاجون للتوجيه والترشيد والعلاج بالشفقة والرحمة والبحث عن الطرق المناسبة للعلاج.... لا أنهم مجرمون يتم التعامل معهم بكل قسوة وعنف وإنزال أنواع البطش والتنكيل بهم بمجرد

الاشتباه والالتهام، بل وحتى لو تمت إدانتهم فينبغي التعامل معهم بحذر، ومحاولة إقناعهم وإتاحة الفرصة لهم وإعادة تأهيلهم ودمجهم في الحياة والمجتمع ما أمكن، فأخر الدواء الكي، وقديماً قالوا: ينال بالرفق ما بالعنف لم ينل، والعنف لا يورث إلا عنفاً.

٤- العمل على تخفيض مثيرات التطرف والعنف إلى أدنى مستوى ممكن، وذلك من خلال إصلاح الأوضاع الشرعية والأخلاقية في المجتمع، وحمايتها من الانحلال الأخلاقي، وإنشاء ودعم مؤسسات إصلاحية تقوم على حماية الآداب والأخلاق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنع تفشي الفواحش والمنكرات... فكما يوجد جهاز مختص في مكافحة المخدرات، يجب أن توجد أجهزة قوية وذات صلاحية واسعة لمكافحة مختلف الجرائم والممارسات التي تخل بشرف وكرامة المجتمع وتتنافى مع أخلاقه وقيمه وعاداته ومعتقداته... وإرساء قواعد التكافل الاجتماعي ومحاربة الفساد... ومنع الظلم على المستوى الفردي والجماعي... وإرساء العدل والمساواة... وإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، سواء كانت حقوقاً مالية أو شخصية أو فكرية أو ثقافية أو سياسية... ذلك أن المجتمعات لا يمكن أن تقوم على الظلم أبداً، والله تعالى ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة.

٥- الاعتناء بالشباب بقضاياهم واهتماماتهم وطموحاتهم: وذلك من خلال تربيته تربية سليمة صحيحة، على أن يكون القائمون عليها هم من أصحاب الفكر الإسلامي الوسطي النير، ثم بالعمل على إيجاد قنوات تمتص طاقاته وتستثمرها في قنوات مفيدة للمجتمع، على أن تراعي تلك الأنشطة طبيعة الشباب التي تحتاج للحركة والحيوية. فالشباب بطبيعته يتمتع بطاقات هائلة ومتنوعة: من الطاقة الجسمية، والقدرة الفكرية، والاستعداد للتضحية... يمكن أن تكون طاقة بناء مثمرة إذا وجدت من يوجهها التوجيه الصحيح، ويمكن أن تكون طاقة هدامة للفرد والمجتمع إذا لم تحض بالعناية والتوجيه، فهي أشبه ما تكون بالسيل الجارف، فهذا السيل إذا وضعت له السدود والمعابر وصرف بطريقة صحيحة؛ فإنه يكون خيراً للإنسان ولما يمتلكه الإنسان من الحيوانات والزرع وغيرها، وإذا أهمل؛ فإنه يكون تياراً جارفاً يكتسح الإنسان والحيوان والزرع وغيرها من المنشآت، وهكذا طاقة الشباب.

(هـ) المناعة الفكرية:

يبدو بديهياً القول إن المناعة الفكرية تحمي الأفراد والمجتمعات من التطرف والتعصب والكراهية، ولكن ذلك يقتضي بطبيعة الحال تشكيلات فكرية شاملة لا تقتصر على الحماية من التطرف وإنما تعني أفراداً فاعلين ومستقلين يصعب خداعهم وقيادتهم من غير مشاركة عامة،

ويبدو أن السلطات السياسية في عالم العرب والإسلام تريد مواطنين معتدلين وفي الوقت نفسه تابعين لها حتى في استبدادها وفسادها! (١).

تعني المناعة الفكرية «قدرة الفرد والمجتمع والسلطات على الإدراك، والمعرفة، والاتجاه نحو (٢):»

١ - الحق بما هو التمييز بين العدل والظلم، والخطأ والصواب.

٢ - والخير بما هو التمييز بين الضار والنافع، وإدراك الخطر والتهديد ثم تجنبهما.

٣ - والجمال بما هو التمييز بين القبيح والحسن.

وبطبيعة الحال فإن تعزيز المناعة الفكرية يعني تزويد الأفراد والمجتمعات بالمهارات، والمعارف التي تمكنهم من التفكير الصحيح وتجنب الخطأ والانحراف والتطرف ونقص المعرفة والمهارات، وفي موجة التطرف والكرهية والعنف التي تصعد في عالم العرب والمسلمين اليوم، وتنشئ حالة مرعبة من الصراعات العنيفة والمدمرة لحياة فئة واسعة من الناس ومصالحهم، كما أدت إلى عدم الاستقرار، والهجرة، والفقر، والهشاشة الاجتماعية والاقتصادية. تشكل ضرورات قصوى لبناء منظومات مواجهة من الاعتدال والتسامح وتنظيم العلاقات والمصالح على النحو الذي يمنح هذا الجزء من العالم الرضا، والاستقرار، والمشاركة فيه (٣).

ولكن تحقيق هذا الهدف لا يمكن أن يكون خطة واضحة أو برنامجاً محدداً، أو في عبارة أكثر دقة فإننا لا نملك دليلاً واضحاً ومجمعاً عليه لأجل تعزيز الأمن الفكري أو لتعريف ثقافة السلام!، وتكتنف الفكرة مجموعة كبيرة من المعطيات المحيطة بالأفكار والعلاقات لا تعمل مستقلة، وفي تفاعلها مع بعضها تنشأ متوالية معقدة من النتائج والمسارات. لذا، علينا أن نتعلم التفكير النقدي الذي يؤدي إلى الصواب أو يقترب منه، أو يدير به الإنسان نقص معرفته، ويتعارض ذلك بطبيعة الحال مع المنظومة السائدة في التعليم والعلاقات والمصالح والتدافع الاجتماعي حولها (٤).

لم يعد في ظل هذه الحالة السائدة ممكناً تقديم الاعتدال والتنوير وصفة جاهزة أو يمكن فرضها بمؤسسات السلطة ومحاسبة الناس على أساسها، ليس سوى الثقة، ولا نملك لأجل

(١) إبراهيم غرايبة: المناعة الفكرية تحمي من التطرف ولكنها مزعجة للاحتكار والهيمنة!، ٣٠ نوفمبر ٢٠١٥، بمجلة مؤمنون بلا حدود الإلكترونية، تم الدخول: ٢٠١٦/٣/٩.

- <http://www.mominoun.com/articles/>

(٢) نفسه.

(٣) إبراهيم غرايبة: المرجع السابق.

(٤) نفسه.

بناء الاعتدال والتسامح سوى أن ننشئ بيئة من التفكير الحر والناقد والسؤال والتوق الدائم إلى المعرفة، وإطلاق الخيال وكل أدوات المعرفة للاقترب من الصواب، بما في ذلك من شك ومغامرة، وعلى نحو عملي فإن الأمن الفكري في جوهره يكون «الذات الفاعلة» أو الفرد القادر بكفاءة ونزاهة على التفكير والإدراك، ولكن ذلك ليس مهارة جاهزة يمكن تقديمها للفرد، وإنما منظومة من القيم الاتجاهات والسياسات، .. ويمكن ببساطة أن نسمى هذه المنظومة تعزيز الأمن الفكري^(١).

ولكن لا خيار لأجل مواجهة التطرف والكراهية سوى أن تعيد السلطة والنخب النظر في مكتسباتها ومصالحها القائمة على الهيمنة، وأن تعيد تنظيم نفسها ومصالحها على أساس من ازدهار الفكر الحر والناقد والفلسفة والفنون، ففي المواجهة الفكرية مع التطرف، يظهر بوضوح أنه لا فرق بين الفكر الذي تتبناه التنظيمات المتطرفة، وبين الفكر السياسي السائد والمتبع والقائم على الظلم والطغيان والاستبداد^(٢).

بدأ تشكيل الفكر المعتدل برّد الاعتبار للقراءات العقلانية، المنضبطة بضوابط الشرع، للدين والتي حاربتها السلطات السياسية (وليس فقط الجماعات الدينية المتشددة)، ونكلت بأصحابها وروّادها. وفي الوعي بضرورات مشاركة المجتمعات في مواجهة التطرف، ظهرت عيوب ومشكلات المنظومة الاقتصادية، والاجتماعية، والتعليمية، وأن المجتمعات وصلت إلى حالة من الضعف والتبعية للدولة لم تعد في ظلها قادرة على التأثير والمشاركة^(٣).

وفي عالمية التطرف والإرهاب وانسيابه، متحدّياً الحدود والحواجز، تشكلت ضرورات وقيم التضامن العالمي، وإعادة تعريف العدو والصديق، ليكون التحدي العالمي قائماً حول الإرهاب والأوبئة والفقر...

وفي ذلك كله فإننا نعيد فهم متواليات الفشل والنجاح! فلا يمكن الحديث عن مواجهة الإرهاب والتطرف في ظل الاحتكارات والامتيازات التي تديرها أقلية في الدول والمجتمعات؛ فهذه حالة سوف تظل تنشئ الكراهية، ومزيداً من المتطرفين والمقاتلين. ولا يمكن تخفيف منابع التطرف والكراهية والإرهاب، إلا بالعدالة الاجتماعية والاقتصادية. ويجد العالم نفسه اليوم، لأجل مواجهة الإرهاب، أنه في مواجهة الفساد والاحتكار^(٤).

(١) نفسه.

(٢) إبراهيم غرايبة: المرجع السابق.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

أما اليوم، وقد أصبح الإرهاب والتطرف والصراع الفكري يهدد وجود ومصائر النخب نفسها، كما الدول والمجتمعات، فإنه لم يعد خافيًا أن الناس والمجتمعات يرون أنهم ليسوا معينين كثيرًا بالحرب الدائرة بين الحكومات والمتطرفين، وأنهم لن يخسروا شيئًا جديدًا. فلم تدرك النخب العربية بعد أنها دفعت الشعوب إلى حالة من اليأس، وأنها (الشعوب) لم تعد ترى فرقًا بين الموت والحياة، وأنه لم يعد لها أمل تتمسك لأجله بالأنظمة السياسية القائمة^(١).

ربما لم تكن الجماهير العربية، سواء في «الربيع العربي» أو بتأييدها للمتطرفين، في مستوى من العقلانية والوعي الكافي بمصالحها، وهذه أزمة كبرى بالتأكيد، ولكنها تملك شعورًا جارفًا بالظلم، حتى وإن لم تدرك العدل إدراكًا كافيًا للتأثير والإصلاح. وهذه هي الفرصة المتبقية للنخب العربية؛ أن تدبر عدالة منشئة لعقد اجتماعي جديد يحقق الأمن الفكري والرضا والاستقرار، أو أن تواصل إمعانها في الحرب على الناس. ولكن يبدو أن العالم لم يعد مستعدًا لمواصلة تأييده للظلم والفساد^(٢).

لذا، يكون على كاهلنا عبء الاهتمام الإيجابي والعميق بالعالم؛ سواء في فهمه وتحليله ومراقبته، أو المشاركة فيه والانتفاء إليه وتقبله والاندماج فيه، أو معارضته، أو تجاهله إيجابيًا بقصد التأثير فيه، أو سلبيًا بقصد إفشاله أو تقليل أثره والانسحاب منه إيجابيًا، أو ملاحظة الخلل والوهن القائمين فيه ومراجعته ونقده، أو تعزيزه وإصلاحه.. مكون ضروري وأساسي للفرد والمجتمعات لأجل السلامة والصحة النفسية، والارتقاء بالذات وتطوير القدرات والمهارات المعرفية والعقلية والإدراكية، بل والحسنة... عدا عما يتضمنه بطبيعة الحال من عمل اجتماعي ومشاركة عامة. الذين يبدون اهتمامًا كفوًا ومتقدمًا بالعالم، يواصلون، وبخاصة في شيخوختهم، الحفاظ على ذاكرتهم وقدراتهم العقلية والمعرفية. وستكون هذه المهارات المعرفية التي اكتسبوها هي ما يساعدهم على تدبير حياتهم وشؤونهم اليومية، وبغيرها يعودون غير قادرين على ممارسة حياتهم اليومية البسيطة، ويعجزون عن المشاركة في البيئة القريبة المحيطة بهم، ويصيبهم اكتئاب يضعف قدراتهم وصحتهم العامة، وفقدان للذاكرة يمنعهم من القيام بأبسط التصرفات الضرورية^(٣).

يبدأ العلاج بالقراءة. لكن يجب أن تكون قراءة جادة. يقول إريك فروم: «على المرء أن يبدأ بالقراءة؛ وبقراءة الكتب المهمة، وبقراءتها بجدية. ولديّ الانطباع بأن المنهج الحديث في القراءة

(١) نفسه.

(٢) إبراهيم غرايبة: المرجع السابق

(٣) نفسه.

هو منهج توجّهه الفكرة القائلة: بأن على المرء ألا يبدل الكثير من الجهد، فيجب أن تكون سهلة، ويجب أن تكون مختصرة، ويجب أن تكون ممتعة على الفور. وحتماً هذه أو هام كلها. فما من شيء مفيد يمكن أن يعمل المرء أو يتعلمه من دون أي جهد، ومن دون بعض التضحية، ومن دون تدريب»^(١).

ويُنشئ الأفراد، كما المجتمعات، بالقراءة والاهتمام، فكراً نقدياً. وفي ذلك تشكل القدرة على الملاحظة والتمييز. يقول فروم أيضاً: «إذا لم أفكر نقدياً فأنا عرضة لكل التأثيرات، ولكل المقترحات، ولكل الأخطاء، ولكل الأكاذيب المنتشرة التي أتلقّها من اليوم الأول فصاعداً. ولا يمكن للمرء أن يكون حراً، ولا أن يكون ذاته، ولا أن يكون له مركز في ذاته، ما لم يكن قادراً على التفكير نقدياً»^(٢).

من كل ما سبق، يبقى الإنسان في هذا الوجود قطباً تحلق في مداراته الأفكار، وتتجاذبه المذاهب، وتتقاذفه المواقف، ويأتي هذا الكتاب ليؤسس ركائز الوعي، ويحجب عن أسئلة كثيرة، ويكشف خفايا النفس، ويرمم ثلمات التفكير، ويسد فراغات الجهل. وعلى هذا، فقد بحث عبد الكريم بكار أخطاء التفكير وعيوبه ولخصها في ثلاثين ملحقاً في كتابه «خطوة نحو التفكير القويم»، وقد جاءت على الشكل الآتي:

- ١- لماذا نخطئ؟ ٢- قصور العقل البشري ٣- العجز عن التفصيل ٤- وهم الحياد الكامل
- ٥- الخلط بين النظام المفتوح والنظام المغلق ٦- اللجوء إلى الحل الوسط ٧- الاهتمام بالصغير المباشر ٨- الفكر يشوه الواقع ٩- الصواب الوحيد ١٠- ضعف حساسية العقل نحو النسبية
- ١١- الفكر المتصلب ١٢- الفرار من مواجهة الحقيقة ١٣- التفكير السلبي ١٤- العجز عن تقديم تفسيرات متعددة ١٥- تفكير المسار الواحد ١٦- شدة التمسك بالقديم ١٧- مجاوزة البحث في الواقع إلى التفكير النظري ١٨- الوثوقية الزائدة ١٩- التفكير الانتقائي ٢٠- التهويل
- ٢١- الاغترار بالإمكانات الشخصية ٢٢- التفكير التبريري ٢٣- اللغة والتفكير والانفعالات ٢٤- التعميم ٢٥- التفكير المبسط ٢٦- الاهتمام بالاستثنائي ٢٧- التفكير العجول ٢٨- رؤية الأشياء من وجهة نظر خاصة ٢٩- الانخداع بالصدق الشكلي ٣٠- ضعف القدرة على التجريد^(٣).

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) خليل خلف سويميل: رؤية في كتاب «خطوة نحو التفكير القويم» للدكتور عبد الكريم بكار، ٢٠١٥ على موقع شبكة الألوكة الثقافية، تم الدخول: ٢٠١٦/٣/١٠.

- <http://www.alukah.net/culture/0/88500/#ixzz42OYb23Ye>

انظر: عبد الكريم بكار: خطوة نحو التفكير القويم، الطبعة الثالثة، عمان، الأردن، دار الأعلام، ٢٠٠٨.

ولعله من الممكن إجمال هذه الأخطاء في التفكير وإرجاعها إلى سبب رئيس، هو انخفاض المنسوب المعرفي، وهذا ما ينتج عنه ضعف في الوعي، ومن هذا تتفرع الأخطاء والعيوب في بنية التفكير في تكوين الشخصية^(١).

بالإضافة إلى كل ما سبق، فإنه لعلاج التطرف الفكري ينبغي أن يقع على عاتق العلماء ضرورة التأصيل للمفاهيم الإسلامية الوسطية خاصة في أوساط الشباب في كل المحاضن التربوية المعروفة؛ من مسجد، ومدرسة، وجامعة، وإعلام، وبيت، وتصحيح المفاهيم الإسلامية المغلوطة بالحجة والبرهان. فالفكر الذي نشده ونريده، معالمه أنه فكر وسطي الوجهة والنزعة [كما جاء في الكتاب والسنة]؛ فهو فكر تتجلى فيه النظرة الوسطية المعتدلة المتكاملة للناس والحياة، النظرة التي تمثل المنهج الوسط للأمة بعيداً عن الغلو والتقصير^(٢).

- فهو وسطٌ بين دعاة المذهبية الضيقة، ودعاة اللا مذهبية المفرطة.

- وسط بين أتباع التصوف وإن انحرف وابتدع، وأعداء التصوف وإن التزم وأتبع.

- وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط، ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرر.

- وسط بين المحكِّمين للعقل وإن خالف النص القاطع، والمغيِّبين للعقل ولو في فهم النص.

- وسط بين المقدِّسين للتراث، وإن بدا فيه قصور البشر، والمُغنين له وإن تجلَّت فيه روائع الهداية.

- وسط بين الداعين للسياسة على حساب التربية، والمهمِّلين للسياسة كلفة بدعوى التربية.

- وسط بين المتعجِّلين لقطف الثمرة قبل أوانها، والغافلين عنها حتى تسقط في أيدي غيرهم بعد نضجها.

- وسط بين المستغرقين في الحاضر الغائبين عن المستقبل، والمبالغين في التنبؤ بالمستقبل كأنه كتاب يقرؤونه.

- وسط بين المقدِّسين للأشكال التنظيمية وكأنها أوثان تُعبد، والمتحلِّلين من أي عمل منظم كأنهم حبات عقد منفرط.

(١) خليل خلف سويلح: المرجع السابق.

(٢) يوسف القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، سلسلة نافذة على الفكر المعاصر، غزة، مطبعة الرنتيسي، ١٩٩٠، ص ٣٤.

- وسط بين المسرفين بالتفاؤل متجاهلين العوائق والمخاطر، والمسرفين في التشاؤم فلا يرون إلا الظلام، ولا يرقبون للظلام فجرًا.

- وسط بين المُبالغين في التحريم كأنه لا يوجد في الدنيا شيء حلال، والمبالغين في التحليل كأنه لا يوجد في الدنيا شيء حرام.

بالإضافة إلى كل ما سبق، يمكننا أن نضيف أنه لا بد من الأخذ بيد النشء والشباب وحثهم على ترك التفكير التقليدي الذي يقوم على النمطية والقبولية المتحجرة، والانتقال بهم إلى تعلم أساليب وأنماط التفكير الإبداعي غير المتصلب، والذي يشتمل على التفكير الناقد، والأسلوب العلمي الرصين الذي يقوم على مقارنة الحجة بالحجة والدليل بالدليل.

ومن بين، صور هذا التفكير الإبداعي:

١- ضرورة حثّ الشباب على تحديد المفاهيم والمصطلحات التي يتناولونها في حياتهم اليومية سواء الدينية أو السياسية... وغيرها. وذلك لأنه قد يحمل المصطلح أكثر من دلالة، قد يقصد المرء شيئًا ما في حين يفهم الآخرون شيئًا آخر.

٢- تعليم الشباب الأسلوب المنطقي في التفكير؛ بحيث يتم الانتقال من مقدمات إلى نتائج تلزم عنها. ومن ثمّ، رفض الكثير من الأفكار المتطرفة التي لا مبرر لها.

٣- تعلمهم أيضًا عدم التعميم في إصدار الأحكام على الأشخاص الذين يختلفون معنا في الرأي، فما ينطبق على الجزء لا ينطبق بالضرورة على الكل.

٤- التأكيد على وجوب تعلم لغة الحوار، والأخذ والرد بالأدلة والبراهين التي لا تتنافى مع سليم العقل.

٥- وبالتالي، يمكننا تعلم التواضع والإقرار بخطئنا إذا ثبت ذلك، ومن ثمّ، التراجع عن الأفكار المتطرفة التي كنا نعتقد أنها صحيحة أو صائبة ثم ثبت لنا عكس ذلك.